بسم الله الرحمن الرحيم

تشوهات في خارطة الثقافة العربية

إن من يتأمَّل خارطة المشهد الثقافيّ العربي المعاصر لا يشعُر بالتفاؤل، وتبدو له هذه الخارطةُ مبتلاةً بكثير من التشوُّهات التي تُشعر أن صحَّتها معتلَّة بعلل خطيرة، وهي عللٌ أيسرها أنها لا تُسعف - كما هو شأنُ الثقافة في كلّ أمة - على تمثُّل شخصية واضحة الملامح لهذه الأمَّة التي تُنتجها، وهُويَّة الحضارة التي تَصدُر عنها.

وهذا بؤسٌ حقيقيٌّ في ثقافة أيَّة أمَّة، وهو مُؤشِّر إلى مرض عُضال قد يُودي بها إذا لم تُشْفَ منه، وقد يكون من أبرز ما أدى إلى ذلك:

عدم وضوح التصوُّر الفكري الذي تصدُر عنه الثقافة العربية المعاصرة، فهي كخبط العَشواء، أو حاطب ليل، وكلٌّ فيها يغنّي على لَيلاه، مما يجعل الإبداعَ الثقافيَّ خليطاً متناقضاً ينسف بعضُه بعضاً، وقد يلعن بعضُه بعضاً، وذلك عائدٌ إلى تعدُّد - أو تضارُب - المصادر والمنابع الثقافية التي يصدُر عنها الأدباء والمفكّرون.

ولا شكَّ أن هذا التعددَ كان يمكن أن يكونَ مصدر غنًى وثَراء، لولا ما تحوَّل إليه الأمر من تنافُر وتناقُض وتشكيك في أيسَر الثوابت التي يُفترَض أن تشكّل هويةَ الأمة وعقيدتَها وذوقَها. لقد تحوَّلت الدعوةُ إلى حرية الرأي إلى معوَل هدم في ثقافة هذه الأمة، بل في ثوابتها ونُصوصها القطعيَّة التي تشكل وجهَها الواضح المتميّز.

إن الحَراك الثقافيَّ أمرٌ مستحبٌّ محمود، بل هو علامةُ صحَّة وعافية عندما ينضبط على وَفق هوية معينة تَفيء إليها الأمَّة وتلتمُّ من حولها، عندما يتَّجه هذا الحَراك نحو الوِفاق، ونحو تأسيس ثقافة الاختلاف المثمر البنَّاء، ولكنه يكون داءً دَوِيّاً عندما يفهمُه قومٌ من بني جِلدتنا على أنه الانفلات من كلّ قيد، والجَريُ على غير هُدى، والتشكيكُ - على طريقة الفكر الغربيّ المادي - في كلّ شيء، مما يجعل الأمَّة قَشَّةً في مَهَبّ العاديات.

ومن هذا البؤس ذلك الإلغاءُ والإقصاء اللذان تمارسهُما كلُّ فرقة من الفِرَق المنتجة للثقافة عندنا في حقّ المخالفينَ لها في الرَّأي، حتى غَدا القمعُ والاستبداد سِمةً واضحةً من سِمات هذه الثقافة.

وغَدَت شعاراتٌ تتَّهم بالتزمت، أو الرجعية، أو السلفية، أو الظلامية، أو التفسيق، أو التبديع، أو التكفير، أو ما شاكل ذلك، من الذائع المشهور الذي تحفل به كتاباتُ أهل الثقافة والفكر عندنا، وهذا ما يجعلُ الشكَّ محيطاً بكلّ ما ينتجه أيُّ طرف من الأطراف، ويُوقع المتلقّي - ولا سيَّما من عامَّة الناس - في بحرٍ من الحَيرة والاضطراب لا يَعرف خلاصاً منه.

إن التزمت والغلو، وإن التطرف وأحادية النظرة هو الذي يقود إلى ذلك، ولا بد من تقبل الآخر، والانفتاح عليه، فذلك يغني الثقافة، ويتجاوز بها أزمتها.

مدير التحرير